

## صورة الغرباء المغاربة في مصر والشام خلال عصر الحروب الصليبية

الدكتور نواف عبد العزيز الجحمة

كلية التربية الأساسية

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي

الكويت

### مقدمة:

تسعى هذه الدراسة إلى إبراز جوانب من الاتصال والتواصل الذي كان قائماً بين المغرب والمشرق (مصر والشام نموذجاً)، خلال عصر الحروب الصليبية، بالتركيز على ردود الأفعال المشرقية على الصاعدين الرسمي والشعبي إزاء العطاءات والإسهامات المغربية - التي تتعلق أساساً بالمجالين العسكري والمدني اللذين تميز بهما المغاربة الوافدون على المشاركة.

وتجدر الإشارة إلى أنه سنصب اهتمامنا في البحث على موضوع فئة الغرباء المغاربة المتواجدة في بلاد مصر والشام تحديداً، أملين أن تسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب طالما أغفله المهتمون بدراسة العلاقات الحضارية والاجتماعية، وقبل أن أدخل في صلب الموضوع، أود أن أوضح بعض النقاط التي قد تثار حولها تساؤلات!

- فماذا تعني بـ (الغرباء) و(المغاربة) - في هذه المدة (زمن الحروب الصليبية)، وفي ظل كل من الأيوبيين والمماليك.  
إننا نستعمل كلمة (الغرباء) للدلالة على النوى والبعد، قال ساعدة بن جؤية وهو يصف صحاباً:

ثم انتهى بصري وأصبح جالساً      فيه لنجد، طائف متغرب  
وقيل: متغرب عنا أي من قبل المغرب.  
وقال المتلمس:

ألا أبلغا أفناء سعد بن مالك      رسالة قد صار، في الغرب، جانبه  
والاغتراب والتغرب كذلك، نقول منه وقد غربه الدهر، والغريب هو البعيد عن وطنه،  
والغرباء (= الأبعاد) <sup>(١)</sup>.

أما عن مفهوم مصطلح (الغرباء) في المنظور العقدي، فقد أورد الشيخ ابن القيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين في (باب الغربة) أحاديث نبوية شريفة - فعلى سبيل المثال - عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة".

وفي حديث آخر: "بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء وقيل:  
ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها الناس".

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره".

ويعلق مؤلف هذا الكتاب فيقول: (هؤلاء الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلنتهم في الناس، سموا غرباء) <sup>(٢)</sup>.

ومما تجدر الملاحظة به - أن أغلب الإشارات الواردة في استعمال كلمة (الغرباء) كانت في مدونات كتب رحلات الحج المغربية (ابن جبير، وابن بطوطة مثلاً)، وقد جاءت مقرونة بالجالية المغربية والأندلسية الوافدين على المشرق العربي، وذلك لكثرة المرافق الموقوفة على الغرباء وعامة المغاربة وخاصة في بلاد مصر والشام. أما معنى كلمة (مغاربة) - فهي للدلالة على أعلام الغرب الإسلامي برمته، أي منطقة المغرب (المغرب، وتونس، والجزائر)، والأندلسي. وهذا الاستعمال الواسع لكلمة (مغربي) نجد تسويغه في كونه سيتماشي وما كان يقصده الرحالة والمؤرخون العرب الذين ترجموا أو كتبوا عن الأعلام الأندلسية والمغربية في بلاد المشرق). فالمصادر لا تقيم تمييزاً واضحاً بين الأندلسيين والمغاربة (مغاربة المغرب الأقصى)، ولا بين هؤلاء وسكان المغربين الأوسط والأدنى. ويبدو أن جميع الذين جاؤوا من الأندلس أو من أقطار المغرب قد عرفوا بـ (المغاربة) بشكل عام بالنسبة للمشاركة على مختلف فئاتهم<sup>(٢)</sup>، والمغاربة الذين نتقصي أخبارهم، هم الذين وجدناهم مشاركين تحت إمرة العساكر الأيوبية والمملوكية، أو المقيمين بالمرافق الموقوفة عليهم في الديار المصرية والشامية، أو المجاورين ببيت المقدس، أو المتوجهين لقضاء مناسك الحج.

أما الطريقة التي سلكتها في إنجاز عناصر هذا العمل، فتتخلص في التصميم الآتي:

- ١- أسباب تنقل ونزوح المغاربة إلى مصر والشام.
- ٢- صور من إسهامات المغاربة في مصر والشام - وأثرها على الصعيدين الرسمي والشعبي.
- ٣- استنتاجات وملاحظات.

## ١- أسباب تنقل ونزوح المغاربة إلى مصر والشام:

إن الدارس المتأمل في تاريخ المغرب الإسلامي يلفت النظر بشدة ظاهرة التنقل والترحال لدى المغاربة والأندلسيين، حيث كانت أغلب رحلاتهم تيمم وجهها شطر

المشرق والأماكن الإسلامية المقدسة، فعلى الرغم من وقوع بلادهم في أقصى الغرب الإسلامي، فإنهم كانوا يتجشمون كل وعر في البر أو البحر بغية قصد زيارة الأماكن المقدسة بالحجاز أو فلسطين وأداء مناسك الحج، والنهل من منابع العلم المشرقية، ولذلك (كان الشوق إلى الرحلة مثيراً لفن من التراسل الطريف، إذا كانت رحلات الأندلسيين تحملهم في الغالب إلى الديار المقدسة)<sup>(٤)</sup>.

كما كان للعلاقات الطيبة بين المشرق والمغرب في تلك المدة الزمانية، وانعدام ما يصطلح على تسميته - بالحدود السياسية في عصرنا هذا، توفر وسائل المواصلات البرية والبحرية على الرغم مما يحدث بها من أهوال دور في تعزيز هذا التواصل، حتى ليظهر أن تواصل المشاركة مع المغاربة والأندلسيين وقتئذٍ كان أشد كثافة مما هو عليه الآن<sup>(٥)</sup>.

ومن شأن هذا الواقع الاجتماعي أن يعمل على تقوية شعور المغاربة والأندلسيين بأصلهم العربي الإسلامي، على الرغم من كونهم محاطين بأمم أعجمية.

كانت هذه أهم النقاط التي حثت المغاربة والأندلسيين على سلوك النهج الرحلي خلال حقبة ما قبل موضوع هذا البحث، إلا أنه هناك أسباباً أخرى لم تذكرها بعض المصادر<sup>(٦)</sup>. ومع ذلك نستطيع استقراءها للوصول إلى الظروف والتطورات التي تستوقفنا عند تفصيل أشكال التنقل وأسبابه. وهنا نود أن نتساءل: ما الذي حدث على الساحة المغربية والأندلسية حتى لجأت فئة من أهلها إلى مصر والشام، وما أهم عوامل الجذب والاستقطاب التي شجعت على استقبال النازحين وتوافقت مع تطلعات القادمين في تلك الحقبة التاريخية.

إذا ما حاولنا رصد الآراء في شأن الدوافع والبواعث التي حملت المغاربة والأندلسيين على النزوح عن وطنهم في عصر الحروب الصليبية، أمكننا القول إنها تتجلى فيما يلي:

١- حالة الاضطراب النفسي السياسي والتشتت الداخلي من جراء الانقسامات التي ارتبطت بسقوط الخلافة الأموية، وظهور ما يعرف بـ (دويلات ملوك الطوائف) في القرن الخامس الهجري/ ١١ الميلادي، وما نتج عن ذلك من آثار وخيمة على معظم سكان أهل الأندلس.

٢- حركة الاسترداد الأسبانية التي انتهت في الاستيلاء على المدن العربية الأندلسية في سنة ١٢٦١/٦٥٩م، وما ترافق معها من إجراءات قاسية منظمة أجبرت أعداداً كبيرة من الأندلسيين على الهجرة منها إلى غير رجعة<sup>(٧)</sup>، وهذا ما نلاحظه من خلال تتبع الهجرات باتجاه بلاد المغرب وبقية أقطار المشرق العربي.

٣- ظهرت كيانات ذات صبغة عقدية مختلفة حكمت الأندلس بعد شلل دول الطوائف في نهاية الأمر على نحو معهد لسقوطها بصورة حتمية وهما: الدولة المرابطية (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) إلى (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، ثم الدولة الموحدية (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) إلى (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)، وهذا التبديل في الدول رافقه بطبيعة الحال تبدل فكري، ويبدو بعد اتساع الفجوة بين الدول الحاكمة والمعارضين بسبب سوء الأوضاع الداخلية بالأندلس من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما كان له الأثر من نزوح وهجرات إلى أقطار مشرقية أخرى<sup>(٨)</sup>.

٤- حالة الفوضى والاضطرابات السياسية المقرونة بظاهرة طغيان المد العشائري (قبائل بني هلال وبني سليم) إلى إفريقية، وما نتج عن ذلك من وقوع التخريب والتدمير في المؤسسات العمرانية، ثم كذلك ما قام به ملوك صقلية النورمانية من اضطهاد الصقليين والمسلمين في الجزيرة، وبسط سيطرتهم على مدن ساحل إفريقية عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، وقد ترجم هذا الوضع النفسي إلى الهجرة إلى بلاد المغرب والمشرق العربيين.

٥- أما السبب الأخير، فيتجلى في التقديس للتراث المشرقي والتهافت على الارتواء من منابعه مردّه أن المشاركة - كما كان ينظر إليهم أهل الأندلس - أحاطوا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وما روى عنه<sup>(١٠)</sup>، والاعتقاد بأنهم لن يفيدوا علماً ولا فكراً من مسيحيي الأندلس (الغوط) أهلها الأصليين لكونهم حسب اعتقادهم أهل جهل وجهالة وليسوا أهل علم وحضارة، وهذا ما نلاحظه في قراءة واقع التاريخ الأندلسي.

أما أهم العوامل الإيجابية (=عوامل الجذب والاستقطاب) التي تجسدت في بلاد مصر والشام وبنصيب أوفر، يمكن عرضها وتلخيصها على الشكل التالي:

#### ١- بلاد الشام:

إن مصر تقع على الطريق الرئيس لحجاج المغاربة والأندلسيين القاصدين أرض الحجاز للحج أو المجاورة، ولوفرة الإمكانات الاقتصادية، التجارة والصناعة والزراعة، وهذا ما أكدته لنا الرحالة بنيامين التيطلي الأندلسي الذي زار مصر خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، يقول في وصفه: "وبالإجمال ليس في العالم كله بقعة أهلة السكان، كثيرة الزروع مثل مصر الواسعة، المليئة بالخيرات"<sup>(١١)</sup>.

ثم يمضي فيذكر حركة النشاط التجاري بمرفأ الإسكندرية، فيقول: "وإسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم، يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة (.....) وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها النصارى.

ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم في ضجة وجلبة يبيعون ويشتررون"<sup>(١٢)</sup>. ربما أن مصر كانت تشغل دور الوساطة في التجارة العالمية في تلك المدة التاريخية.

تعدّ مدينة الإسكندرية رباطاً إسلامياً كبيراً، لذا أُجلبت عليها المجاهدين والأخلاقيين المغاربة الذين ألفوا الرباطات في بلادهم، واتخذوها مراكز يزاولون فيها التعبّد والجهد<sup>(١٣)</sup>.

كما لاقى المغاربة في مصر كل العناية والحفاوة والتكريم على كل الصعد (الرسمية والشعبية) منذ أيام حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي<sup>(١٤)</sup>. حتّى نهايات الدولة المملوكية.

الثانية<sup>(١٥)</sup>، وقد شيدت المدارس والزوايا والرباطات والأروقة في المساجد باسم المغاربة، وهنا تبين كثافة الوجود المغربي الأندلسي بين أواخر القرن السادس الهجري، وهي مدة ازدهار العطاءات المغربية.

نقل مركز الخلافة العباسية إلى مصر منذ أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ ١٣م، جعل مصر على قدر كبير من الأهمية من الناحية السياسية والدينية ومهجراً من المهاجر العالمية من تاريخ العصر الوسيط.

## ٢- بلاد الشام:

وجد المغاربة من الغرباء في بلاد الشام أرضاً صالحة تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الأوطان مما ساعدهم على الاستقرار مع شعور عارم بالطمأنينة والسكينة، فلقد أحبهم أهل الشام وحكامها، أكرموا مثواهم وأحسنوا منزلتهم وأعلو قدرهم، واختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم<sup>(١٦)</sup>.

- انتقال الحركة العلمية من بغداد إلى دمشق من جراء التخريب التتري لبغداد في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ ١٣ الميلادي، كان له الأثر في تكاثر المدارس وزيادة الطلب على المدرسين والعلماء فكان نصيب المغاربة كبيراً إلى حد ما، خصوصاً وأن التدريس بالمدارس كان مقابل رواتب كبيرة. وتعدّ إجازات أعلام

دمشق لأبي عبد الله اللواتي (ابن بطوطة) التي أثبتتها بالسماع والسند المصطلح عليه مسألة متفرقة في الرحلة<sup>(١٧)</sup>، من المحتمل أن الجو العلمي بدمشق كان إغراؤه في حرص أحاب الرحلة على أن ينال هذا الفضل، في حين أن رحلته امتازت بالطابع الاجتماعي في القرن الثامن الهجري.

- عذ المغاربة والأندلسيون فلسطين وبيت المقدس الشريف من أهم مدن العرب والإسلام في العصر الوسيط وبخاصة في أثناء الاحتلال الصليبي، وتكونت هذه القدسية من خلال الكتاب والأحاديث النبوية الشريفة رواج أدب من نوع جديد هو أدب تقديس الأماكن المقدسة<sup>(١٨)</sup>.

- إن الأسس الاقتصادية المعتمدة من تجارة مزدهرة وصناعات رائجة وزراعات متنوعة، قد شكلت دافعاً لتوافد المغاربة بمجاميع كبيرة العدد تمحور وجودها في المدن الكبرى في الشام، ولاسيما بمدينة دمشق وقد علت شهرتهم على صعيد الأمانة والجد والإخلاص وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً في أغلب الأحيان من قبل المسؤولين والتجار وأرباب الحرف والمهن في الدولة.

## ٢- صور من إسهامات المغاربة في مصر والشام - وأثرها على الصعيدين (الرسمي والشعبي):

شارك المغاربة في جميع المجالات ، وتركوا أثراً حضارية عالية المستوى فقد حملوا لواء المشاركة في كل فرع من فروع الحياة الهامة، إلا أن مجالات أخرى ترجمت الإسهامات المغربية التي يجب أن تطلب في المنجزات العسكرية والمدنية أكثر مما تطلب في سواها من الاختيارات الأخرى، ما دامت الإسهامات المغربية هي الأبرز في جانب الجهاد والتخلق والخدمة في أي جانب آخر في حقبة عصر الحروب الصليبية.



## ١- المشاركة العسكرية:

عندما قامت الحركة الصليبية التي تمثل هجوماً أوروبياً استعمارياً على المشرق العربي، وتكوين إمارات صليبية في شمال الشام والجزيرة ثم انتزاع بيت المقدس الشريف من أيدي الفاطميين، وجدنا صحوة مشرقية قادها نخبة من رجال استحقوا الإشادة التاريخية - أمثال عماد الدين الزنكي وابنه نور الدين محمود، ثم القائد صلاح الدين الأيوبي الذي تمّ على يديه سقوط الدولة الفاطمية في مصر وتحرير بيت المقدس. وقد رحب هؤلاء الحكام بجميع المغاربة بين الغرباء الوافدين على المشرق، ذلك لأنهم يتمتعون بمزية، في قيادة السفن الملاحية والحربية، وبناء الأساطيل، واختراع بعض الأسلحة الفعالة<sup>(١٩)</sup>، ويبدو أن خبرة المغاربة في مواجهة الحكم الفاطمي أثناء تسلطه على بلاد المغرب قبل أن يحول وجهه إلى مصر، والتجربة المرابطية التي جمعت بين الجهاد والمجاهدة كانت حاضرة في أذهان الأيوبيين.

كيفما كان الأمر، فإن المصادر التي أشادت بالدور الذي شغله المغاربة عسكرياً تضمن معلوماتها، وكل ما نجده إشارات نصية في سياق أخبار أخرى وردت في كتب التراجم والرحلات، لكن لهذه الإشارات أهميتها البالغة في تصوير التضحيات الكبيرة والسخية التي قدموها على مدى سنين طويلة. ولعل أول من يسعفنا هو شاهد عيان زار مصر والشام في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٤م، ألا وهو الرحالة ابن جبير الأندلسي<sup>(٢٠)</sup>. فهو ينص على أن البحريين المغاربة شاركوا في مهاجمة الصليبيين عند عيذاب، ذلك أن هؤلاء كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح المقدس، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، ويقول ابن جبير: "فدفع الله عاديّهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ<sup>(٢١)</sup> مع أنجاد<sup>(٢٢)</sup>، المغاربة البحريين، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم (٠٠٠٠)، وقتلوا وأسروا وفرق من الأسرى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم إلى مكة والمدينة. تتفق أقوال المؤرخين<sup>(٢٤)</sup>، مع ما ذكره

ابن جبير في تلك الحادثة الشهيرة، إلا أنها تبقى من العوامل التي أدت إلى توطيد مركز صلاح الدين وذيوع صيته، في المشرق والمغرب، وكذلك اكتمال سيطرته السياسية والعسكرية على البحر الأحمر. لكن هذا النجاح ما كان له أن يتم إلا عن طريق مشاركة المغاربة البحريين في الأسطول المصري.

ولعل أكبر إشادة بخصوصية المغاربة بالخبرة في سلاح البحرية في تلك الحقبة هو ما ترويه المصادر من أن صلاح الدين يطلب المساعدة من الموحدين بعد عام ٥٨٥هـ، وذلك حينما شرع بوفد على رأسه سفيره عبد الرحمن بن منقذ إلى عاهل المغرب يعقوب المنصور الموحي يطلب منه المساعدة البحرية لمنازلة ثغور الصليبيين بالشام<sup>(٢٥)</sup>. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور برفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه بأمر المؤمنين، فقد ذكر المؤرخ ابن خلدون: "وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستنجاد ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا"<sup>(٢٦)</sup>.

كما تتضح من مجموعة النصوص الأخرى التي تحتوي عليها رحلة ابن جبير علو مقام أسرى المغاربة لدى السلطان نور الدين زنكي، لما قاموا به من مشاركات عسكرية في جهاد الصليبيين، فقد بلغ اهتمام نور الدين بأمر المغاربة القادمين إلى الشام حداً وصل إلى أنه فضلهم على أهل البلاد المحليين، إذ يروي ابن جبير عنه، أنه اهتم بفك الأسرى منهم قبل أسرى الشام بقوله:

"وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرضه إن شفي من إصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة، فلما استبرأ من مرضه، أرسل في فدائهم، فسيق فيهم فريق نفر ليسوا من المغاربة، وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة، وقال: "هؤلاء يفكهم أهلهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم"<sup>(٢٧)</sup>.

ولم يقتصر أمر افتكاك الأسرى على السلطان نور الدين والأمراء والخواتين (الأميرات)، إذ يحدثنا ابن جبير كذلك عن تاجرين من مياسر التجار بدمشق

وأغنيائهم، أحدهما يدعى نصر بن قوام، والآخر أبو الدر باقوت (نصبهما الله عزّ وزجلّ لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا)، لأنهما المقصودان كما قد اشتهرت من أمانتهما وثقتهما وبذلتهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهم<sup>(٢٨)</sup>.

إضافة إلى ذلك - عند زيارة ابن جببر حصن تينين - ذكر السبب في الإجراء العدائي الذي اتخذه الصليبيون ضد كل مغربي يجتاز بلادهم إلى أقطار أخرى من دون غيرهم من أبناء الإسلام، بقوله: "وأكثر المتعرضين في هذا المكس المغاربة ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم".

وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالهم ولا نرزأهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم.

فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم بالعدو يسهله عليهم ويخفف عنهم<sup>(٢٩)</sup>.

يبدو أن الدولة الأيوبية استمرت في سياسة استخدام المغاربة في أساطيلها البحرية، حيث يروي الرحالة الأندلسي ابن سعيد المغربي حينما زار مصر في سنة ٦٣٩هـ، ومكث بها حتى سنة ٦٤٤هـ، وأن السلطة الأيوبية لجأت إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول إلى الدعاية الشائعة في مصر عن اختصاصهم ومهارتهم بفنون الجهاد البحري ومعاناته.

ويقول: "وسائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول إلا المغاربة، فذلك وقف عليهم لمعرفةهم بمعاناة البحر"<sup>(٣٠)</sup>.

هذا وقد دلت بعض المصادر أن المغاربة توصلوا إلى أرفع المناصب القيادية في بحرية مصر العسكرية، فعلى سبيل المثال لا الحصر - يذكر اليونيني صاحب كتاب (نيل مرآة الزمان)، أن من بين الأسرى الذين أسرهم الفرنجة سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م، بالقرب من قبرص - الرئيس شهاب الدين أبو العباس المغربي<sup>(٣١)</sup>.

أما المقرزي فيذكر أن من تسلم قيادة الأسطول الحربي في مصر سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م، هو الحاج محمد التازي المغربي الذي أبلى بلاءً حسناً في الهجوم على الإفرنج، حيث قتل منهم جماعة وأسروا باقيهم. وأنه لما تقدم ومثل بين يدي الحاكم المصري خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما أحضره من الغنائم على حد قوله<sup>(٣٢)</sup>.

كما ويفرد النويري صفحات تاريخية في وصف الأعمال البطولية التي قام بها قائد الأسطول المصري ورئيس دار الصناعة بالإسكندرية الرايس إبراهيم التازي المغربي، الذي عرف ببطولته في الجهاد ضد الصليبيين - وقد أرجع النويري هذه الانتصارات العسكرية إلى اختصاصهم في هذا الميدان - بقوله: "والفرنج لا يقهرهم سوى المغاربة، وذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس، فيعرفون طريقهم طرق حربهم وطعنهم و ضربهم في بر وبحر"<sup>(٣٣)</sup>.

وفي السيرة الشعبية للظاهر بيبرس، يرد ذكر القائد أبي بكر البطرني الطنجاي، وهو بحار مغربي يقود غليوناً ومعه (٦٧٥) بحاراً يأترون بأمره، وهو ابن حاكم طنجة. وتزعم السيرة أنه شارك في موقعة بحرية بين الروم والملك صالح بن أيوب بالقرب من ميناء جنوى الإيطالي، فينتصر أبو بكر الطنجاي على الروم ثم يدخل الميناء. وتروي السيرة عنه أخباراً كثيرة، ومن بين تلك الأخبار دخوله أرواد مع السلطان الظاهر بيبرس! والقبض على ملك الجزيرة المدعو (جمجرين)<sup>(٣٤)</sup>.

من جهة أخرى، لم تقتصر إسهامات المغاربة على المشاركات العسكرية كمحاربين، بل ساهموا في مجالات أخرى مثل صنع الأسلحة الفعالة التي استعملت ضد الصليبيين، حيث بلغ للابتكار أوجه عند بعض المغاربة في هذا العلم، إذ يشير

النويري عن مجاهد مغربي عرض على أمير الإسكندرية سيف الدين الأكرز سلاحاً جديداً عبارة عن قنور كفيات صغيرة من الفخار، ضيقة الأقدام مملوءة جيراً ناعماً مطفياً بالبول، وكانت الواحدة منها ملء الكف في حجم الرمانة مثل (القنابل اليدوية الآن)<sup>(٣٥)</sup>. وكان مفعول هذا السلاح يبدأ عندما ترمي وتكسر فيصعد الجير في وجوه الأعداء ويدخل في أعينهم، ويصعد في خياشيمهم، ويفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم. ومن أثر هذا السلاح، أن المسلمين انتصروا على الصليبيين في البحر.

إن هذه الأعمال الجلييلة التي قام بها المغاربة، تركت أثراً إيجابياً في الإدارة الإفريقية، فمثل ما كانت هناك سياسة ترحيب وتوطين للمغاربة في بلاد مصر والشام، نجد مقابلها سياسة تهجير واضطهاد وتمكيس في بلاد الفرنج، وذلك من جراء اشتراكهم مع إخوانهم المشاركة في الميدان العسكري ضد الصليبيين.

### ب- المشاركة المدنية:

وفي المشاركات المدنية سنركز على إسهامات فئة نشطة من الغرباء المغاربة (الفقراء والعمال)، التي عدت كفئة ليست ذات أهمية في المجتمع، إلا أنها ساهمت إلى حد كبير في استمرارية العطاء المغربي وسد حاجات المجتمعات المصرية والشامية في مجالات مختلفة - طيلة عهد الحروب الصليبية - وقد تجلّى ذلك في المجال (الأخلاقي)، والمجال (الخدمي) على مختلف فروعها، وبالرغم من أن الفئة تشكل الغالبية العظمى من الجالية المغربية، فقد غدت أعمالهم الموصوفة بالخلق والأمانة والصدق عناوين بارزة ميزتهم عن غيرهم وجعلتهم في مقدمة الوافدين على مصر والشام.

- ففي المجال الأول: نرى أن دور المغاربة في مجال التربية الأخلاقية كان له دور كبير في عملية التجديد الأخلاقي والديني في المجتمعات المصرية الشامية، فقد ربطت بين الممارسة الحربية والممارسة الخلقية، على اعتبار أن الأول تنزل عندهم منزلة الفرع التابع للثانية<sup>(٣٦)</sup>.

ولقد كان من أهداف سياسة الأيوبيين المتعلقة بالأحباس الكثيرة لتجمع الغراء المغاربة من مدارس وخوانق ورباطات، هدفاً للتمكن من إيقاف تأثير المذهب الباطني في النفوس، وإيقاف الحملات التبشيرية في بعض المراكز من الأراضي المصرية والشامية.

ولا غرابة في اتخاذ هذه السياسة من قبل هؤلاء الحكام، وهم يرون أن مثال الإسكندرية كان نصب أعينهم، فقد ظلت هذه المدينة سنين تعمل بالمذهب المالكي على عهد الفاطميين، وتتخذ محط رحال المغاربة في ذهابهم إلى الحج وإيابهم منه، وكان واضحاً أن محافظة مدينة الإسكندرية على طابعها السني المالكي يرجع الفضل فيه إلى هؤلاء المغاربة.

يبدو أن هؤلاء الحكام أدركوا أن للممارسة الأخلاقية المغربية توجهاً تأنيسياً صريحاً يصير به أقدر من غيره على الوقوف في مواجهة التبشير المسيحي والتشيع الفاطمي<sup>(٣٧)</sup>، ففتحوا الطريق لعمل المغاربة في أرضهم ومكنوا لهم المقام فيها.

ومن المعلوم أن الوافدين على مصر والشام من المغاربة المنقطعين إلى الله والمهاجرين إلى حرمة الأمين ارتفع عددهم ارتفاعاً في الحقبة الممتدة ما بين القرن السادس والقرن السابع الهجريين، فلا يبعد أن يكون توجه المغاربة امتداداً ومكملاً لتوجه المحاربين إلى مصر والشام لمنازلة المواقع التي احتلها الصليبيون إن كان هذا التوجه قد تحقق أن تعذر، فقد استطاع هؤلاء الوافدون أن يتصدوا للدعوات التبشيرية التي كان يقوم بها الدعاة المسيحيون في المناطق القريبة من المراكز التي احتلها الصليبيون أو في المناطق النائية - فعلى سبيل المثال - فقد تولى الشيخ أحمد البدوي<sup>(٣٨)</sup>، بطنطا التربية الأخلاقية والدعوة إلى الله، والشيخ عبد الرحيم<sup>(٣٩)</sup>، في قنا تجديد الإيمان في قلوب من أضلّتهم هذه الدعوات التنصيرية<sup>(٤٠)</sup>. وأبو الحجاج الأقصري تلميذ عبد الرحيم القناني يعيد أهل القصر إلى الإسلام بعد أن انسلخوا عنه لسنوات عدة<sup>(٤١)</sup>.

والشيخ أبو الحسن الشاذلي<sup>(٤٢)</sup>، فكان أن استقر بالإسكندرية موجهاً وهادياً إلى سبيل الله، وبكلامه (القريب العهد بالله) وبالرغم من انكفاف بصره وتقدم سنه في أواخر عمره يهب إلى إنقاذ ثغر دمياط من الصليبيين محفزاً للهمم حتى أتى نصر الله، وقد أدركته المنية في طريقه إلى الحج سنة ٦٥٦هـ.

كما تولى هؤلاء الوافدون في أن ينزعوا من قلوب العامة الآثار العقدية التي تركها في نفوسهم المذهب الإسماعيلي القائلة باستقلالية علوم الباطن، ويزرعوا بدلها محبة العلوم الشرعية الظاهرة والعلوم القلبية معاً - مزوجين بين أساليب التربية الروحية التي تركز على الأوراد والأذكار والأحزاب<sup>(٤٣)</sup>، وبين أساليب الوعظ والتدريس التي تركز على الفهم والحفظ<sup>(٤٤)</sup>. إذ انتقلوا إلى البوادي والأصقاع النائية يعلمون الناس أمور دينهم بطريقهم المثلى، كالذكر الجماعي وقراءة القرآن الجماعية في المدارس والخوانق والرباطات، مبطلين عملياً الدعوات المنحرفة ومؤثراتها عند العامة.

يبدو أنهم كانوا مطلوبين وبخاصة في تلك المرحلة التاريخية، لذا اختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم - فمن أجلهم ابتتوا عدداً من المدارس والمحارس، والزوايا والرباطات، وأسندوا مهام التدريس والتربية إلى الوافدين عليهم، وأجروا عليهم الأرزاق في كل يوم ما بلغوا فمن الأمثلة:

يذكر ابن جبير أن نور الدين زنكي عيّن للمغاربة الغرباء أوقافاً كثيرة منها سبعة بساتين وأرض بيضاء وأن المشرف عليها هو الآخر المغربي يدعى أبو الحسن علي ابن سردال الجباني<sup>(٤٥)</sup>.

وكذلك نجد شهادة مشابهة بها وصلتنا على لسان الرحالة ابن بطوطة في القرن الهجري، وربما يكون ابن بطوطة قد

استحضرها في هذا المقام بقوله: "وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو من ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجلمة

الصوفية بالخوانق تجري له النفقة والكسوة، فمن كان غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزرى بالمرءة<sup>(٤٦)</sup>.

أما في المجال الثاني - فانطلاقاً من بعض الإشارات الواردة في المصادر نستطيع أن نثبت أثر العمال المغاربة في الحياة العامة، فقد قدمت للمجتمعات المصرية والشامية خدمات جليلة خاصة في تطوير وتنمية الاقتصاديات في الحواضر الكبرى وفي المدن الساحلية، حيث تميزت بأجورهم الضئيلة التي كانوا يرضون بها، وشهرتهم على صعيد الأمانة والجد والإخلاص في العمل، وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً وبخاصة من قبل المسؤولين في الحكم والإدارة في الدولة.

ولعل أوضح أمثلة على هذا الواقع ما ذكرته لنا بعض المصادر التي حدثتنا عن أنواع الحرف والمهن التي امتهنوها يقول ابن جبير: "وسائر الغريباء ممن عهد الخدمة والمهنة، بسبب له أيضاً غريبة من الخدمة: إما بستان يكون ناطوراً فيه، أو حماماً يكون عيناً على خدمته، وحافظاً لأثواب داخلية، أو طاحونة يكون أميناً عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم إلى محاضرهم ويصرفهم إلى منازلهم، إلى غير ذلك من الوجوه الواسعة".

وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغريباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلدة (دمشق) صيت في الأمانة، وصار لهم فيها ذكر، وهذا من أطفاف الله تعالى بالغريباء<sup>(٤٧)</sup>.

كما يروي لنا المقرئزي من خلال إشارة أوردها عند حديثه عن الحمامات التي كانت برفقة صلاح الدين الأيوبي خلال المدة الطويلة التي قضاهما لتحرير بيت المقدس والمدن الشامية الأخرى من أيدي الصليبيين، حيث يتحدث عن وجود أكثر من ألف حمام، وكان الذين قاموا بمهمة تجهيزها وتحضيرها من الأندلسيين المغاربة الفقراء<sup>(٤٨)</sup>.

بالإضافة إلى هذه المهن المذكورة قام المغاربة بأعمال أخرى كعمارة المساجد والجوامع والأبنية المدنية، إذ ظهرت تأثيرات المعمارين الأندلسيين والمغاربة



واضحة جداً في كثير من عمارة بعض المدن الشامية، مثل مآذن الجوامع الكبيرة والمساجد في مدينة طرابلس الشام<sup>(٤٩)</sup>، ويظهر التأثير الأندلسي واضحاً فحتى يخيل للناظر لأول وهلة أنه يرى إحدى مآذن الأندلس أو المغرب العربي.

وقد لفت نظر الرحالة ابن فضل الله العمري في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أن جميع أبنية طرابلس بالحجر والكلس، مبيضة ظاهراً وباطناً<sup>(٥٠)</sup>، وظاهرة تبييض المباني نراها في مدن المغرب، وليسست الدار البيضاء إلا نموذجاً من الطراز المغربي بتسميتها وطابعاً، وليس طرابلس الشام إلا انعكاساً لها ببياض مبانيها<sup>(٥١)</sup>.

أما فيما يتعلق بسجلات وثائق جنيزة القاهرة، فقد أثبتت وجود عدد مهم من الحرفيين المغاربة - حيث يقول جوايتاين: "إن المرء يستطيع أن يجد في مصر عمالاً قدموا من كل الأقطار ما بين إسبانية في الغرب وجيورجيا وإيران في الشرق"<sup>(٥٢)</sup>.

ويضيف: "ولقد كانت حركة الناس دائبة، فجدد وثائق الجنيزة حرفيين من إسبانية ومن المغرب"<sup>(٥٣)</sup>.

نخلص مما سبق أن الفئة العمالية المغربية كانت محط اهتمام ورعاية من قبل الحكام والمسؤولين في الإدارة الإسلامية، حيث كان أفرادها يرضون بالانخراط في الحرف والمهن التي يأبأها البلديون، وبأقل الأجور المادية وأرخصها هذا ما جعلهم مطلوبين في طيلة عصر الحروب الصليبية وهنا يحق أن نستوضح - تحليل هذه الظاهرة التي أثرت بالإيجاب في نهاية المطاف على المجال الاقتصادي في المشرق.

إذ صح تحليلنا لاعتماد أهل الشرق على العمال المغاربة، وهو أنهم طلبوا فأذن لهم صحت معه أيضاً الحقائق التالية:

١- إن العمل الحرفي المغربي يتصف بأوصاف لا يمتاز به فيها أحد كأعمال البناء والنقاش، والصناعات مثل (صناعة الحرير وصباغته وتلوينه)<sup>(٥٤)</sup>.

٢- إن السلوك المغربي الموصوف بالأمانة والجد والإخلاص في الأعمال الحرفية، حقق لهم صيتاً وذكراً جميلاً، شعر المجتمع المصري والشامي بالحاجة إليه حينئذٍ.

٣- تأثرت الغالبية من أصحاب الخدمة بالأخلاقين المغاربة الذين كرهوا (المتعطلين) من تلامذتهم، فنصحوهم باتخاذ الحرف وبالبعد عن السؤال وعن انتظار عول العائلين<sup>(٥٥)</sup>، لذا كانوا يحرصون على الولوج في الأعمال الخدمية من الوجوه الواسعة دون النظر في نوعية المهنة.

٤- كان للأزمات الاقتصادية (الغلاء، المجاعات، الأوبئة)، التي تعيشها المنطقة دور في الاعتماد على اليد العاملة المغربية الوافدة على البلاد الذين كانوا يلاقون مصاعب كثيرة في حصولهم على عمل مما يشير إلى أن أفرادها كانوا يرضون بأرخص الأجور مما جعل الطلب عليهم شديداً.

ولعل أوضح الأمثلة على هذا ما أورده النعيمي، إذ يذكر أن نائب دمشق جاء إلى الجامع الأموي، وأخذ يفند مرتبات العاملين بالعمارة والبناء وفي النواحي الأخرى المتفرقة، فوجد أن المبلغ المخصص للعمارة وغيرها كبير جداً، فقال للناظر والمباشرين: "باشروا ذلك بأنفسكم، وإن احتجتم إلى أمين على آلات العمارة هاتوا مغربياً كل يوم درهمين، فإذا فرغت حاجتكم فيه يروح"<sup>(٥٦)</sup>.

أما عن أثر إسهامات الغرباء المغاربة في نفوس مصر والشام على الصعيدين (الرسمي والشعبي) خلال عصر الحروب الصليبية، فانطلاقاً من المعلومات المتوفرة في مدونات المؤرخين والرحالين، نستنتج أن المغاربة لقوا عناية مميزة إلى حد كبير من جميع حكام بلاد مصر والشام في مختلف الأوقات، كما حدث على سبيل المثال في عصر صلاح الدين الأيوبي ومثله نور الدين زنكي. فقد ذكر ابن جبير عن نور الدين زنكي، أنه اهتم بفك الأسرى من المغاربة والأندلسيين قبل أسرى الشام<sup>(٥٧)</sup>. وأنه

خصص للغرباء المغاربة الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الأموي، وبقيت وفقاً حتى نهاية العصور الوسطى، وكان يتولاها في أكثر الأحيان فقيه مغربي<sup>(٥٨)</sup>.

ومن المؤكد أن هذا الاهتمام بأمر المغاربة لم يقتصر على الحكام، وإنما شاركت فيه بنصيب وافر الأوساط الشعبية والميسورة، ويروي ابن جبير بهذا الصدد أن (جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم).

فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل<sup>(٥٩)</sup>. هذا وقد بلغ اهتمام السلطان بالمغاربة أن فتح المجال لاستقبال معارضين ذوي مبادئ عقدية ربما اختلفت مع السلطة في حالة التبدل السياسي في الدول.

يقول ابن جبير عن أحد الأعيان المرابطين الفارين من دولة الموحدين بالمغرب المستقرين بالربوة المباركة<sup>(٦٠)</sup>، بآخر جبل قاسيون: "والأمين (أي أمين الربوة) الآن من بقية المرابطين من المسوفين، ومن أعيانهم يعرف بأبي الربيع سليمان بن إبراهيم ابن مالك، وله مكانة من السلطان ووجوه الدولة وهو متسم بالخير ومرتمم به، وهو متعلق بسبب من أسباب البر من إيواء أهل المغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات"<sup>(٦١)</sup>.

أما في عهد صلاح الدين، فقد تجلت صورة الترحيب بجميع الغرباء والمجاهدين وأولى المغاربة الذين يقاتلون معه والمتصوفة عناية خاصة، ويمكن أن نلمس أثر هذا الاهتمام في إجراءات ومواقف صلاح الدين من الغرباء المغاربة، يذكر ابن جبير أن المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة في

مصر، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر<sup>(١٢)</sup>.

بل أكثر من ذلك جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يداً لأحد عليهم، حيث قدموا من أنفسهم حاكماً يمثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده<sup>(١٣)</sup>.

أما في عهد الأفضل بن صلاح الدين، لاقى المغاربة عناية فائقة منه، جزاءً وفاقاً على خدماتهم. ففي أيام سلطنته - أوقف (مدرسة الأفضلية)، لتقديم الخدمات التعليمية لهم (ليسكنوا في مساكنها، وينتفعوا بمنافعها)، ولدراسة تعاليم المدرسة المالكية المنتشرة في المغرب العربي<sup>(١٤)</sup>.

وبجوارها وقف قطاعاً من المدينة يقع بجوار المسجد الأقصى وسوره من جهة الغرب، وقد وقعت (حارة المغاربة) تبعاً لذلك بين سور المدينة في الجنوب وحائط الحرم الشريف في الشرق<sup>(١٥)</sup>، وكان هذا الحي (الحارة) يتضخم من الزمن بالمغاربة المتعبدين في القدس، مما دفع الشيخ عمر بن عبد النبي المغربي المصمودي إلى تعمير زاوية بأعلى الحارة ووقفها على الفقراء والمساكين بتاريخ ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م، كما سنجد عند مطالعتنا لسجلات المحكمة الشرعية في بيت المقدس أكثر من (١٠٠) وقفية تتعلق (بحارة المغاربة)، أن أشهر أوقاف هذه الحارة بالإضافة إلى وقفيات الملك الأفضل ابن صلاح الدين وهو وقف شعيب بن الحسين أبو مدين الغوث المالكي الذي توفي ٥٩٤هـ / ١١٦٩م، والذي يعتقد أن شارك في تحرير القدس من أيدي الصليبيين<sup>(١٦)</sup>.

هذا ولم يتوقف الاهتمام بهم أو يقل على عهد المماليك، بدليل ما سجله ابن بطوطة بهذا الخصوص في القرن الثامن الهجري بقوله: "وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد"<sup>(١٧)</sup>.

كما قد جاء على لسان ابن بطوطة أنه: "كان بدمشق فاضل من كتّاب الملك الناصر (بنكز) يسمى عماد الدين القيصراني من عاداته أنه متى سمع أن مغربياً وصل إلى

دمشق بحث عنه، وأضافه وأحسن إليه، وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره<sup>(٦٨)</sup>.

وتأتي قيمة وعظمة مكانة الغرباء المغاربة في نفوس أهل الشام أن وقفوا على موتاهم مقبرة خاصة كمقبرة خليل بن زوزان التي تقع إلى الجنوب من مقابر الصوفية، والتي أوقفها على ما يبدو على الصالحين من الصوفية، وغيرهم من العلماء المغاربة، وكان أول الذين دفنوا فيها من المغاربة أبو الحسن علي المراكشي، والمقبرة تعرف — (مقبرة فقراء المغاربة) تقع على سطح جبل قاسيون في مغارة الدم في شمال دمشق<sup>(٦٩)</sup>.

وفي هذا الصدد يورد لنا ابن بطوطة خبراً على عدم وقوعه، إذ قال حينما وصل إلى بيروت أنه قصد منها زيارة القبر العاهل المغربي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بموضع برك نوح، ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف، وقيل السلطان نور الدين<sup>(٧٠)</sup>.

مهما يكن من أمر، فإن كانت رواية ابن بطوطة يشوبها اللبس والإبهام<sup>(٧١)</sup>، إلا أنها تندرج في نطاق الأساطير الشعبية آنذاك ولعل هذه المقبرة التي أشار إليها، كانت مقبرة للغرباء المغاربة وهم في طريقهم إلى الحج أو بقصد التجارة، ثم أطلق عليها اسم أبي يعقوب كرمز بأنه القائد الزاهد في الملك، المنتبج لأحوال الفقراء لمساعدتهم ونجدهم.

### ٣- خلاصات واستنتاجات:

الآن وقد انتهينا من عرض ومناقشة هذه الصورة، يجدر بنا أن ننهي هذا المقال بحصر أهم الخلاصات والنتائج التالية:

١- إن الدور البارز الذي شغله المغاربة من الغرباء الوافدين على المشرق، شكّل على مر الحروب الصليبية، حلقات وصل متتالية تبودلت وتنامت بين

المغرب العربي ومشرقه، وذلك رغماً عن القلاقل والموانع السياسية والاختلافات الفكرية التي كانت عائقاً أمام التلاقي والتضامن الوحدوي.

٢- تميزت أغلب المصادر في وصفها للمشاركة العسكرية المغربية ضد الصليبيين بالمشرق، بالتركيز على المحاسن، مما جعل الصورة التي رسمها المؤرخون والرحالة لهم تبدو واضحة جلية، فمعظم الأحكام التي صدرت لها علاقة بما علق بذهنهم من أفكار وتصورات ناتجة عن تأثير من التعاليم الإسلامية خاصة منها التي تهتم مجال المناهضة والجهاد، والأخلاق والمعاملات.

٣- قد نال المغاربة من السلاطين الأيوبيين والمماليك كل الحفاوة والتكريم، لما كانوا يقومون به من تضحيات كبيرة وسخية في مختلف الحقول والميادين، إلى جانب جهادهم ضد الصليبيين على مدى سنين طويلة.

٤- إن الشعور بوحدة الأمة كان حاضراً في وعي الأوساط الشعبية على اختلاف فئاتهم، وهو ما تجسد في رغبة المغاربة الملحة بالمشاركة إلى جانب إخوانهم الشوام والمصريين في المعارك البرية والبحرية، من أجل تحقيق النصر سواء في مصر أو في البقاع المقدسة في فلسطين.

٥- من جهة أخرى، نسجل أن معرفة المغاربة بالأعمال المهنية في مختلف المجالات الاقتصادية، أهلتهم لتطوير وتنمية الاقتصاد بمصر والشام في وقت الحروب الصليبية، كما أن أصالة المغاربة في المجال الخلقي أهلتهم لسد حاجات المجتمعين المصري والشامي من التجديد الأخلاقي في التصدي للدعوات المنحرفة والحملات التبشيرية.

٦- وأخيراً، فإن المغاربة والأندلسيين شكلوا جالية كبيرة العدد إلى حد ما في مصر والشام، وهذا ما تزرخ به كتب التراجم المشرقية من معلومات بخصوص الأعلام المغربية، لكن من الملاحظ أن المؤرخين أغفلوا ذكر

بعض الفئات المختلفة، كالمشاركين في الجيوش النظامية، والفقراء المتصوفة (الأخلاقيين)، والعمال (أصحاب الحرف والمهن).

بقي أن ننوه أن هؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون، ولقلّتهم في الجهات المشرقية سمو (غرباء).

## الهوامش

- (١) ابن منظور: لسان العرب المحيط، م٢، من الزاي إلى الفاء، بيروت، دار لسان العرب، ص ٩٦٦، ٩٦٧.
- (٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ج٣، إلى ٢٠١.
- (٣) محمد الشريف: الجالية المغربية في العالم من خلال رحلة ابن بطوطة، مجلة المعرفة والتاريخ، ص ١٠٠.
- (٤) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف المرابطين، ص ٣٠٦.
- (٥) عبد اللطيف مؤمن: رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس، ص ٢٧٦.
- (٦) كتب التراجم تمد الباحث بتاريخ المواليد والوفيات للأعلام الذين ترجمت لهم، ومن الصعوبة أن تجد في طياتها تاريخ وأسباب هجرة هؤلاء الأعلام: انظر: أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بـ (الذيل على الروضتين)، دار الجيل، بيروت، ط٢٠، ١٩٧٤، ص ٧، ١٨٦.
- (٧) البنتوني، محمد ليبب: رحلة الأندلس، ط١، القاهرة، مطبعة الكشكول، ١٩٢٧، ص ١٣٧. محمد بعد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ق٢، ط١٠، ١٩٦٤، ص ٦٢٧. علي أحمد: رجال الإدارة والسياسة والجبس من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة، دراسات تاريخية، جامعة دمشق، السنة ٨، العددان ٢٧ و ٢٨، ١٩٨٧، ص ١٩٣.
- (٨) عبد المجيد بهيني: أثر مهاجري المغرب الإسلامي في الحياة العامة بالمشرق خلال القرنين السادس والسبع الهجريين / الثاني والثالث عشر الميلاديين، ندوة



المغرب - المشرق، العلاقات والصورة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بن ملال ١٩٩٤، ص ١٨.

(٩) يذكر لنا ابن جببر في رحلته أن أمين الربوة المباركة بدمشق المدعو أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك الذي نرح إلى بلاد الشام عقب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين.

ابن جببر: الرحلة، بيروت، دار الشرق العربي، ب، ت، ص ٢١٥. ثم كذلك ما أوضحه الوهراني (محمد بن محمد) صاحب كتاب المنامات عن هجرته من الأندلس إلى مصر، وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحدين في كتابه المذكور. انظر إلى الوهراني: المنامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نقش، القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨، ص ١١. علي أحمد: رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة، ص ١٩٣.

(١٠) انظر إلى عبد اللطيف مؤمن: رحلات الأندلسيين نحو المشرق مقياس الاستيعاب المعرفي والأصالة الثقافية بالأندلس، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(١١) التطيلي، بنيامين: رحلة بنيامين الأندلسي إلى بلاد الشرق الإسلامي، ترجمة وتعليق عزرا حداد، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٧٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٧٨-١٧٩.

(١٣) طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي في التراث الإسلامي، إسهام أخلاقي: عمل المغاربة الخلقي في مصر نموذجاً، مجلة للتاريخ العربي، العدد الرابع عشر، ربيع ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- (١٤) انظر في هذا الصدد ابن جبير: الرحلة، ص ١٥ و ٢٣، و ٣٣، و ٢٢٠، و ٢٢١. ابن حجر: أبناء الفجر بأبناء العمر، ج ١، تحقيق حسين حبشي، دار التحرير، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٤٤.
- (١٥) النعمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، ١٩٤٨، ج ٢، ص ٤٠٤. أبو شامة: الذيل على الروضتين، نشره عزت العطار الحسيني، ط، ١٩٤٧، ص ١٥٣. علي أحمد: بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص ٥٥.
- (١٦) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادي التازي، ج ١، ص ٢٣١.
- (١٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٤، و ٣٣٥، و ٣٣٦، و ٣٣٧.
- (١٨) علي أحمد: القدس في نظر الأندلسيين والمغاربة خلال العصور الوسطى، مجلة التاريخ العربي، العدد ٩، ١٤١٥هـ / ١٩٩٩م، ص ٤٩-٥٣.
- (١٩) أحمد مختار العبادي: دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، بحوث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٨٨-٩٩.
- (٢٠) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكتتاني الأندلسي، الشاطبي البنلسي، ولد في بنلسية سنة ٥٣٩هـ، وكانت وفاته بالإسكندرية، حيث أقام هناك محدثاً في سنة ٦١٤هـ. وقد ألف كتاباً هوة أشبيه بمذكرات يومية سجل ابن جبير فيها ملاحظاته ومشاهداته أثناء رحلته التي بدأها في شوال ٥٧٨هـ، وانتهى منها بعودته إلى الأندلس في ٢٢ محرم سنة ٥٨١هـ.

(٢١) هو حسام الدين لؤلؤ من أصل أرمني، وقد تمكن من إحراق السفن الصليبية في أيلة وعيذاب وتحقيق النصر في موقعة حوراء البحرية قرب ينبع على ساحل الحجاز سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، انظر إلى: ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن، يوسف: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية، ١٩٦٤، ص ٤٦.

(٢٢) النجدة: ظهور الشوكة والاستظهار بالجنود وعقود الأولوية والبنود ومجاهدة الكفرة والغاة، والشوكة في نظر ابن جبير كانت للمغاربة، فالفرقة الظاهرة بالمغرب وهي الفرقة المجاهدة والمرابطة، انظر إلى: أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، حققه عبد الرحمن بدوي، دار الكتب الثقافية، الكويت، ص ١٨٢، وهامش ٧.

(٢٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٣٠.

(٢٤) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٤٩٠. المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٨٥-٨٦. أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ٣٥.

(٢٥) أبو شامة: الروضتين، ج ٢، ص ١٦٥ وما بعدها. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦، ص ١٢. ابن عذارى: البيان المغرب، ج ٣، ص ١٨٣. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٢٧-٥٣٠. مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ١٠٧.

(٢٦) ابن خلدون: العبر، ج ٦، ص ٥٢٨.

(٢٧) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

- (٣٠) ابن سعيد المغربي: النجوم الزاهرة، ص ٣٠.
- (٣١) نص لليونيني أورده علي أحمد، رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر في القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة، ص ٢٠٤.
- (٣٢) نص المقرئزي أورده علي أحمد، رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربة في مصر في القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة، ص ٢٠٤-٢٠٥.
- (٣٣) نص للنويري أورده محمد مختار العبادي: دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي، ٩٧.
- (٣٤) سيرة الملك الظاهر بيبرس، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٩، ج ٣، ص ٣٤٤. عمر عبد السلام تدمري: الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام، مجلة التاريخ العربي تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثاني عشر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٤-٢٥.
- (٣٥) محمد مختار العبادي: دور المغاربة، ص ٩٦. السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٣٢٣.
- (٣٦) طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي في التراث الإسلامي، ص ٣٢.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٤-٣٥.
- (٣٨) ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ، ولبس الخرقه بها على يد الشيخ عبد الجليل النيسابوري، دخل مصر أيام الملك الظاهر بيبرس، دفن بطنطا وعرف عند الشعب المصري بالسيد وبشيخ العرب لتثمه كالبندو بالمغرب، وأصبح ضريحه

مهبط الزوار من مصر وخارجها منذ القرن السابع الهجري: حسن راشد المشهدي الخفاجي: النفحات الأحمدية، القاهرة، المشهدي الخفاجي، ١٣٢١هـ.

عبد العزيز بن عبد الله: ريادة فكرية بين مصر والمغرب، مجلة التاريخ العربي، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد ١٥، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٣٠.

(٣٩) شيخ الصعيد المصري عبد الرحيم القنائي (نسبة لقنا) السبتي أصلاً، ولد سنة ٥٢١، ولبس الخرقة وتعلم التخلق على يد الشيخ أبي يعزى، ثم انتقل إلى الحجاز حيث أقام مجاوراً تسع سنين ومنه تحول إلى صعيد مصر فاستقر بقنا حتى وفاته ٥٩٢هـ. انظر: صلاح عزام، السيد عبد الرحيم القنائي، دار الشعب، ب. ت. طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي، ص ١٩، ص ٣٠.

(٤٠) صلاح عزام، السيد عبد الرحيم القنائي، ص ٧١.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٦٩-٧٠. طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي، ص ٣٦.

(٤٢) هو نور الدين علي بن عبد الرحمن، الغماري الزرويلي، ولد في غمارة بالريف شمال المغرب، عام ٥٩٣هـ، وتوفي بصحراء عذاب ببلاد الصعيد عام ٦٥٨هـ، بعد أن أصبح شيخ المتصوفة بالشرق وأصبحت طريقته مرجع جميع الحركات الصوفية في العالم الإسلامي. ابن عطاء الله: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن، توجد سبع نسخ في الخزانة الحسنية بالرباط من رقم ٣٣٢ إلى ٦٣١٨.

عبد العزيز بن عبد الله: ريادة فكرية بين مصر والمغرب، ص ٣٠.

(٤٣) يذكر ابن بطوطة في رحلته (حزب البحر) المنسوب إلى أبي الحسن الشاذلي، وقد لقي هذا الحزب اهتماماً كبيراً ممن لهم صلة بالبحر من المسلمين وقد وجدنا

- الدولة المغربية توصي ربانة السفن بتلاوة هذا الحزب. انظر إلى: رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ١٨٩، وتعليق ٢٣.
- (٤٤) طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي، ص ٣٦.
- (٤٥) ابن جبیر: الرحلة، ص ٢٢١.
- (٤٦) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ص ٣٣١.
- (٤٧) ابن جبیر: الرحلة، ص ٢١٥.
- (٤٨) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، رقم ١، تحقيق محمد مصطفى زیادة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٩٤.
- (٤٩) عمر عبد السلام تدمري: آثار طرابلس الإسلامية، طرابلس، دار الإيمان، ١٩٩٤، ص ١٩ وما بعدها.
- (٥٠) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في مسالك الأمصار، دار الكتب المصرية، رقم ٢٥٦٨، ج ٢، ق ٣، ص ٤٤٨-٤٥٠.
- (٥١) عمر عبد السلام تدمري: الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الثاني عشر، ١٩٩٩م، ص ٣٢.
- (٥٢) جوايتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ١٠، ١٩٨٠، ص ١٧٢.
- (٥٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢.
- (٥٤) علي أحمد: بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين، ص ٥٤.
- (٥٥) طه عبد الرحمن: الإسهام المغربي، ص ٢٣.

- (٥٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، تحقيق جعفر الحسني، دمشق، ١٩٤٨، ص ٤٠٤. علي أحمد: بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين، ص ٥٥. عبد المجيد بهيني: أثر مهاجري المغرب الإسلامي في العامة في المشرق، ص ٣٠.
- (٥٧) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٤٠.
- (٥٨) المصدر نفسه، ص ٢٢١.
- (٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.
- (٦٠) هي الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى ذات القرار والمعين، ومأوى المسيح وأمه مريم عليها السلام.
- (٦١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٥.
- (٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٣.
- (٦٤) عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس، القدس تاريخياً وفكرياً، كتاب جماعي، الرباط، ١٤٠١هـ، ص ١٠٤.
- (٦٥) انظر إلى مجبر الدين الحنبلي: الأئس الجليل، ج٢، ص ٤٩٧.
- (٦٦) شمس الدين الكيلاني ومحمد جمال باروت: الطريق إلى القدس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٠، ص ٢٨١-٢٨٢. ياسر عبد ربه: المقدس وفلسطين في رحلة ابن بطوطة، ص ٦٦.
- (٦٧) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٦٦.
- (٦٨) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٢.

- (٦٩) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٣ و ١٧٣. علي أحمد: بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين، ص ٥٦.
- (٧٠) رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٢٦٢.
- (٧١) نشير هنا أن أبا يعقوب بن عبد المؤمن أدركه الأجل على مقربة من مدينة بايرة (البرتغال) متأثراً بجرو مميتة عند محاصرته لشنترين، وزهو مدفون في تمل (جنوب المغرب) ، ومما هو معروف أنه دفن مقبرة شالة بمدينة الرباط، عبد الهادي التازي: مكانة القدس لدى المغاربة، بحث مقدم للندوة الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب، ١٩٨١.